الايديولوجيا..بوصفها فعالية إيهامية للعقل
في نقد ـ أدلوجة– العروي من منظور سوسيولوجيا المعرفة

م.م علاء جواد كاظم
كلية الاداب /جامعة القادسية

المقدمة :

تعد– الايديولوجيا – أكثر المفاهيم انتشارا وتداولا و أكثر المعاني إثارة للجدل والقلق، لكنها اقلها ثباتاً ،صاغها دستوت دي تراسيDESTUTT DE TRACY [١] بوصفها علم الظاهرات العقلية و العلم الذي سيعطي أساسا عقلياً لنقد التقاليد، فيما عدها دوركايم الثقافة التلقائية للمجتمع معبرا عنها بـ"الوعي الجمعي " وعلى الرغم من أصلها الفرنسي إلا أنها باتت اليوم (مفردةً ومفهوم) دخيل على جميع اللغات الحية وحتى على لغتها الأصلية، يقابلها في العربية : الفكرلوجياء ،منظومة فكرية ،علم الأفكار ،عقيدة ،ذهنية ، إضافة إلى الدراسة التحليلية النقدية للأفكار..والايديولوجي – حسب ماركس– الذي يظن ان العقل يحكم العالم وهو بقناعته هذه أشبه ما يكون بغريق يعتقد أن بإمكانه النجاة من الغرق بمجرد ان يطرد من ذهنه فكرة الثقل . أما الايديولوجيين [٢] فهم جماعة دي تراسي الذين شكلوا استمراراً للفكر الفلسفي العلمي الانواري الذي أعطى أولوية قصوى لإشكالية المعرفة في علاقتها بالسلطة على الواقع والتحكم فيه واستثماره ولإشكالية المنهج في المعرفة البشرية معتبرين "ان العقل التجريبي الفلسفي هو الذي يجب ان يحكم العالم والأفكار الصحيحة المنبثقة في العقل من التجربة الحسية هي التي تصنع الوقائع والأحداث " [٣]وبالتالي فأن طريق الإنسان نحو المزيد من التقدم تمر بالضرورة من خلال تحرير عقله من الميتافيزيقا واللاهوتية .

أما في حقل الدراسات الإنسانية والاجتماعية٤ فأن " الايديولوجيا " بوصفها بنية فكرية نظرية ، يفكر من خلالها وفي إطار حدودها الأفراد خلال مرحلة تاريخية في قضاياهم ،حيث ينتج هؤلاء الأفراد تلقائياً مجموعة من الأفكار والتصورات حول الظواهر التي يعيشونها ، بواسطة إدراك ووصف مظاهرها الخارجية المحسوسة ، معتقدين ان معرفتهم تعكس حقيقتها ،وان تلك المعرفة تشكل علماً بها .ما جعلها تعد من المفاهيم الرئيسة في سوسيولوجيا المعرفة تبنى علم الاجتماع دراستها وعدها من القضايا الأساسية التي يهيم ويهتم بها بشتى تشكلاته وفروعه ،وبعد قرن من الدراسات الكلاسيكية والحديثة صارت الايديولوجيا العمود الفقري الذي يبنى عليه علم اجتماع المعرفة بوصفها " الأفكار التي يعجز العلم الموضوعي عن برهان حقيقتها وشرعيتها لكن قوة هذه الأفكار تظهر من خلال نغمتها العاطفية وتكتيكها المحرك للجماهير والذي يتناسب مع الحدث الاجتماعي الذي ترمي القيام به ."[٥] وبالتالي عدت كأحد" الفعاليات الإيهامية للعقل" منذ اللحظة الأولى لمحاولات درستها فلسفياً في نقديات العقل عند فرانسيس بيكون[٦] F. BACON مروراً بالفلسفة الحسية التي جاء بها كوندياك[٧] E.CONDILLAC انتهاءاً بالمعرفة المطلقة التي قدمها هيغل F.HEGAL وعدها كارل ماركس k. MARX "وعياً زائفا" . هؤلاء الفلاسفة الذين يعدون اليوم وفق المنظور السوسيولوجي المرجعية النظرية الوحيدة والأساس لكل دراسات الفكر والاجتماع الحديثة التي يمكن إن تناقش من بعيد أو قريب موضوعات علم الأفكار وعالمها وأشكالها الإيديولوجية وتشعباتها ومنطلقاتها النظرية والمعرفية.

لقد حاول هذا البحث رصد خلاصة الدراسات التي قدمها المفكر والباحث الكبير عبد الله العروي لاعتبارين أساسيين تمثلا في أولا :إن العروي كان الوحيد تقريباً في الساحة الثقافية والأكاديمية العربية (مع إننا لا نجهل الدراسات المهمة التي قدمها كل من الدكتور نصيف نصار والدكتور سيار الجميل والدكتور الطاهر لبيب والدكتور نديم البيطار لكنها لم تكن بحجم انشغالات

العروي كما ولم تكن متخصصة سوسيولوجيا في محاولاتها للفهم) .. وثانياً إنه يتفق وأهداف هذه الدراسة: فدراساته العديدة والمهمه حول مفهوم الايديولوجيا وتشّريح ماهيتها من خلال تبنيه مجموعة من النظريات السوسيولوجية والمعرفية التي تبنت(الايديولوجيا) بوصفها (وهم) تطابقي ،تتطابقان في جوانيته شكلان للوجود– المادي والنظري –وبالتالي هو يمثل لدينا أحسن تمثيل للمرجعية النظرية التي تناولها بحثنا هذا منقسمة بين " بيكون وكوندياك وهيغل وماركس ".

مشكلة البحث وأهدافه :

ينطلق هذا البحث من تساؤلات كثر حول "الايديولوجيا" والمضامين التي تنطوي عليها وتستمد منه فعاليتها الإيهامية بوصفها منظومة معرفية ذات أبعاد إشكالية ، تشكل في النهاية نسقاً قلقاً من انساق البنية الفوق– اجتماعية منظوراً إليه من ثلاثِ زوايا مختلفة لكنها متكاملة في نتائج التحليل الأخير مفصله وفق الأتي :

أولا :هل تشكل الايديولوجيا رؤية شاملة للعالم محايدة تمدنا بقواعد للسلوك ؟ أم أنها تصور متحيز للحياة ينبني على أسس طبقية وعلائقية ومصالح متناقضة تجعله تصوراً مقلوباً في العقل إيهاميا في نقله صور الحياة . أنها حسب التصور المادي للتاريخ " الوعي الخاطئ" الذي ينجم عن الموقف الطبقي للإفراد الاجتماعيين .والذي يظهر لهم واقع العلاقات الاجتماعية محرفاً بسبب مصالحهم ووجهة النظر المتحيزة التي يفرضها عليهم موقعهم في نظام الإنتاج.."[٨]

ثانياً :الايديولوجيا بوصفها مفهوم غامض ،مشكل ، غير بريء ،قلق غير مستقر يتحاشى علماء الاجتماع الخوض فيه بالرغم من أن مسائل ومنطويات هذا المفهوم تعتبر كلاسيكية في علم الاجتماع ،الذي جعل بوريكو[٩] يرى " إن الصعوبات التي يؤدي إليها التصور الماركسي للإيديولوجيات تفسر كيف يكون المفهوم خارج تقاليد الفكر الماركسي ، قليل الاستعمال نسبياً " وبالتالي نادرا ما نصادفه لدى دوركهايم أو فيبر أو باريتو ..

ثالثاً :الايديولوجيا بوصفها أداة منهجية مزدوجة التوظيف، إذ يمكن استعمالها كأداة للتحليل السوسيولوجي والمنهجي المجرد من كل الالتزامات الفلسفية، في نفس الوقت الذي يمكن استعمالها كأداة توجيه مشحونة بقدرة ميتافيزيقية على تحويل العقل من حال إلى أخر وتغيير اتجاهات التفكير الإنساني في مجتمع معين إلى خارج مجالات المنطق العام.

لقد حاول البحث رصد إشكاليات الايديولوجيا هذه منطلقاً من التساؤل عما إذا كانت " الايديولوجيا" تتضمن إيهاما عقلياً بوصفها "وهم " يوحي بالمطابقة ولا يتضمنها ونقصد هنا عدم مطابقة الصور(الاشاراتية) التي يقدمها وعينا الذي نحمله عن الواقع في عقلنا وأذهاننا للواقع الحقيقي أو تشير كما يرى العروي " إلى اضطراب في آلة الإنسان المركزية " والتي فسرها بحثنا بمقاصد (العقل) بوصفه الآلة الفسيولوجية المركزية في الإنسان أم إن المشكلة انثربولوجية تكمن (كما نظن) في حواسه أومتحسساته الثقافية غير الفسلجية وحديثة العهد التي تكونت لديه بعد اجتيازه مراحل كبيره من تطوره الثقافي والحضاري والتي أريد لها/ أنيط بها أن تنقل الواقع الموضوعي إلى العقل الإنساني من خلال شبكة المفاهيم والتصورات المعرفية ..؟ أم انه شكل من أشكال العصاب الانطولوجي والأناسي الذي أصاب الإنسان وما زال يتعرض له باستمرار في صراعه مع الطبيعة وحواره (ألمونولوجي)مع ذاته وماضيه التاريخي البعيد حسب نظرية فرويد في التحليل النفسي ..!؟ وبهذا تكون مشكلة البحث كامنة في مجموعة الأسئلة الماضية التي يهدف البحث بجدية كاملة في فحصها وتحليلها والإجابة عليها او بعض منها من خلال نموذج (الايديولوجيا) لدى العروي وأثاره المعرفية وإشكاليات توصيفها وتوظيفها في بحوثه ومؤلفاته المختلفة التي تطرقنا إليها في بحثنا هذا.

سوسيولوجيا المعرفة ..موجز تأريخي:

لكثر ما كان كونديلك يردد قوله الأثير" لم يكن لأحد القدرة على أن يعرف أساس أخطائنا أكثر من فرانسيس بيكون ، الذي رأى أن الأفكار وهي من عمل الذهن شيدت على غير نظام ،وبالتالي لكي نتقدم في البحث لا بد من هدمها وإعادة بنائها على أسس مختلفة.." تلك بإيجاز اللبنة الأولى والأساس الفلسفي الذي ستبنى عليه سوسيولوجيا المعرفة لاحقاً ، هذه الملاحظة التي جاءت بها ألينا فلسفة الأنوار منذ القرن الثامن عشر ومازالت تحتفظ بكامل بريقها وقدرتها على إضاءة الجوانب المعتمة من حياتنا وتجربتنا الثقافية وسلوكنا النظري الجاهد في محاولاته تفسير معطيات الذات وانجراحاتها بمواجهة عواصف العالم الاجتماعي المعاصر وتحولاته المتسارعة ،والحق إن هذه التجربة الثقافية التي تنشغل في الكشف عن طبيعة علاقتنا بالعالم وكيف يتوسط (العقل) الإنساني هذه العلاقة ويعبر عنها بمنظومة أفكار تنطلي باللغة والعبارات التي تحملها لتشكل بالتالي موقفنا المعرفي من العالم ايديولوجياً هذه التسمية التي تصف حالات الذهن ستشكل في تجلياتها مع العقل البنية المركزية والمحورية لعلم اجتماع المعرفة والنقطة التاريخية التي انطلق منها أمس فريدرك هيغل في كتابه الكبير (فينومنولوجيا الذهن)[١٠] عام ١٨٠٧ واصفاً فيه الظواهر الذهنية وآثارها في حياة الإنسان الفرد ومراحل تطور الشعور الإنساني التي بينها وفق التتابع التالي (الشعور ، الشعور بالذات ، العقل ،الذهن الاجتماعي ، ومن ثم المعرفة المطلقة)هذا العمل الذي نقده وطوره وعمق تأملاته الفلسفية كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) في مؤلفه (الايديولوجيا الألمانية) عام ١٨٤٨ والذي عد بحق باكورة ما كتب في سوسيولوجيا المعرفة ، ثم تلتهما في الأهمية والزمن الدراسات التي قدمها أميل دوركايم (١٨٥٨-١٩١٧)عن تأصل المعرفة في الواقع الاجتماعي ، رافضاً اتخاذ الفلسفة الوضعية أساسا لعلم الاجتماع المعرفي .. مؤكداً على نظرية معرفية تنظر إلى " أدق تلك المفاهيم المجردة مثل مفهوم الزمان ومفهوم المكان من حيث أنها ترتبط في كل لحظة من لحظات تطورها ارتباطاً داخلياً بالبناء الاجتماعي الذي توجد فيه " و إلى ابعد من ذلك عندما قرر في مؤلفه " الأشكال الأولية للحياة الدينية " انه حتى تلك المقولات المنطقية هي بمعناها الرفيع مقولات اجتماعية .."ليس المجتمع فقط هو الذي يضعها ، وإنما هي تتخذ من الزمان.ظواهر الوجود الاجتماعي مضموناً لها ....فإيقاع الحياة الاجتماعية هو الذي يشكل أساس مقولة الزمان ... والمكان الذي يشغله المجتمع هو الذي يهيئ المثل لمقولة المكان ، والقوة الجمعية هي التي تستخدم أساسا لمفهوم القوة الفعالة ، كعنصر جوهري في مقولة العلية ...وليس مفهوم الكلية سوى صورة مجردة لمفهوم المجتمع .إن أصل المعرفة الفلسفية والعلمية ينبع من الدين ومن ثم من المجموع.فالدين ظاهرة جمعية سواء من حيث ممارسته في الطقوس أو مضمونه المجتمع الذي يؤله نفسه ."[١١] بعدها بسنوات التحق بهذا الجيل المعرفي ليفي برول (١٨٥٧- ١٩٣٩) في كتابه (العقلية البدائية) [١٢] الذي استغرق ٢٧ عام في تأليفه وإعداده بصورته الأخيرة، وعلى الرغم من وجهته الانثروبولوجية والتأملية أيضا إلا انه ظل يحمل الكثير من المعلومات المهمة حول الأنساق المعرفية عند الشعوب البدائية من خلال الكشف عن ماهية المعرفة الإدراكية للعالم الخارجي وكذلك معرفة (الأنا / الأخر / الـ نحن)عند البدائيين والتي تختلف اختلافاً أساسيا عنها لدى الشعوب المتحضرة معتمدا في ملاحظاته هذه على إن البدائيين يعيشون في عالم مادي واجتماعي لا يمكن مقارنته بالعالم الذي يعيش فيه المتحضرون مما اضطره إلى التسليم بوجود أنواع مختلفة من المنطق طبقاً لنوع المجتمع ..

ثم جاءت محاولات ماكس شيلر (١٨٧٤- ١٩٢٨) الجادة في تحديد المجال والقضايا الرئيسة في الاجتماع المعرفي عبر اكتشافين أساسيين :" تعدد أنواع المعرفة وتباين قوة الارتباط بين هذه الأنواع المعرفية ..ما دفعه إلى تحديد المعرفة التي تتميز بطبيعة(جمعية) بوصفها مشاركة كائن في كيان كائن أخر دون أن تلحق بالثاني أي تغيّرات.."[١٣] ولدينا أيضا دراسات جيروفيتش خاصة ما جاء

في مؤلفيه (الأطر الاجتماعية للمعرفة) و (علم الاجتماع المعرفي) من صياغات نظرية سنأتي على ذكرها لاحقاً ، والنتائج الختامية التي قدمها كل من عالمي الاجتماع الأميركيين بيترم سوروكن في كتابه (الديناميات الاجتماعية والثقافية) الذي صدر في أربع مجلدات عام ١٩٣٧ ومؤلف أخر لزميله فلوريان زنانيكي كان حول (الدور الاجتماعي لرجل المعرفة) The social role of the man of knowlge الذي صدر في ١٩٤٠ الذي ذكر في مقدمته الأطر العامة لعلم اجتماع المعرفة في انه :" العلم الذي يدرس الأدوار الاجتماعية المتباينة التي يضطلع بها العلماء والمثقفون في الأنماط الثقافية المختلفة"[١٤] ثم يليهم كارل مانهايم في (الايدولوجيا واليوتوبيا)[١٥] ليصل الاجتماع المعرفي بعد هذا العمل الكبير والحاسم إلى عتبة المشكل المعرفي في تبيان حدوده وترسيمها رغم دراسات دي كريه De-Grey ومحاولاته للخروج بالعلم من دائرة الإشكال في مؤلفه (المجتمع والايديولوجيا) في ١٩٤٣ الذي حدد فيه دور الاجتماع المعرفي في دراسة تأثير الآراء (غير النظرية) أي العاطفية والعملية الراسخة في المجتمع على المعرفة " ليأتي دور الإضافات المهمة التي قدمها لويس التوسير منمياً ومطورا مساحات كثيرة في نظرية مانهايم السوسيو معرفية حول فهم(ماركس ايديولوجياً) .وأخيرا لاننسى ذكر دراسة هامة عن ماهية وعمق العلاقة بين المثقفين وتعبيراتهم الإيديولوجية التي قدمها الفرنسي جيرارد لكلارك في مؤلفه الأخير(سوسيولوجيا المثقفين) (٢٠٠٩) .

الجدير بالذكر أننا(بعد هذا العرض السريع والموجز لمراحل تطور علم اجتماع المعرفة) نجد ان كل من زنانيكي ومانهايم ودي كري والتوسير وجيرارد ليكلارك وجهوا وغيروا كثيرا في اهتمام سوسيولوجيا المعرفة وموضوعاتها الإستراتيجية لتصَب جُل اهتمامها بدراسة حالات تطور المفهوم (الايديولوجيا) ومعانيها وما يرتبط بها ويتسق معها (ويظهر هذا جليا في عناوين مؤلفاتهم التي حرصنا على ذكرها قبل قليل..)..هذه الدراسات السوسيولوجية والعناوين التي لاقت رواجاً كبيرا في كامل أوربا بعد عنائها الأمرين لتصل من خلالهما بر الأمان والاستقرار ، عانت فيما بعد غرباً وشرقاً من تداخلاتٍ (سلبية) وفوضىً عارمة في توصيف عناصر الاجتماع المعرفي وقضاياه ومحاولات ضمها في نظرية واحدة فكانت انقسامات النظرية المعرفية إلى اهتمامات متمايزة كثيرة نحو تطوير نظرية في سوسيولوجيا الأدب،الرواية والنص والفن والعقل الثقافي) ما ساهم في فشل وتقزم انساق النظرية المعرفية رغم بعض من المحاولات الجادة التي ظهرت هنا وهناك لاحتواء الظاهرة الأيديولوجية وتعبيراتها ، أشكال الوعي ،التصور الذهني وممكنات التعبير عنه بدقة وموضوعية عالية.

في الجهة الأخرى من العالم واجهت وقابلت المؤسسات الأكاديمية العلمية والمعرفية العربية كل هذه الدراسات والجهود المهمة والنتائج الخطيرة الواردة إليها من أوربا بالتجاهل والإهمال وخاصة موضوعات ومقولات على غرار(علم الأفكار و الايدولوجيا) بوصفهما العناصر الأساسية والمحاور الرئيسة لسوسيولوجيا المعرفة ، ولم توليا هذه المسألة اهتمامهما أو حتى تسعيا إلى تطوير علاقتها بهذا العلم و أشكال المعرفة الاجتماعية التي تنشغل بتأمله ، الذي كرس تخلف اجتماع المعرفة ، وجعله قطاعاً هامشياً خارج مساحات التأثير والتأثر. وبعيدا كل البعد عن جهود المختصين العرب ودراساتهم.

في نقد– ادلوجياء – عبد الله العروي

الإيديولوجيا بالمعنى الأصلي، اللغوي، هي البحث في منشأ الأفكار الذي حاول المفكر العربي عبد الله العروي من خلاله رصد إشكاليات هذا المفهوم منطلقاً من زاوية السؤال حول ما إذا كانت تتضمن إيهاما عقلياً مفاده اضطراب يصيب آلة الإنسان المركزية بوصفها وهم يوحي بالمطابقة ولا يتضمنها ونقصد هنا عدم مطابقة الوعي الذي نحمله عن الواقع للواقع الحقيقي ، يتغذى من مقاصد (العقل) بوصفه الآلة الفسيولوجية المركزية في الإنسان . والمشكلة التي قد تكمن أيضا (كما هو ظننا)في حواس هذا الإنسان أو متحسساته الثقافية غير الفسلجيه ،حديثة العهد التي تكونت لديه بعد اجتيازه مراحل كبيره من تطوره الثقافي والحضاري والتي أريد لها/ أنيط بها إن تنقل الواقع

الموضوعي إلى العقل الإنساني من خلال شبكة المفاهيم والتصورات المعرفية ..؟ أم انه شكل من أشكال العصاب الانطولوجي والأناسي الذي أصاب الإنسان وما زال يتعرض له باستمرار في صراعه مع الطبيعة وحواره (ألمونولوجي)مع ذاته وماضيه التاريخي البعيد حسب نظرية فرويد في التحليل النفسي ..!؟ إذا أين يمكننا تلمس جذور المشكلة بالتحديد..؟

لقد قدم الدكتور العروي في مؤلفاته حول (الايديولوجيا وماهيتها ومن ثم الايديولوجيا العربية المعاصرة وبعد ذلك تلمس أثرها في التاريخ العام للمجتمعات العربية) مجموعة هامة من الملاحظات السوسيو– تاريخية محاولا تقديمها بممكنات تفسيرية موضوعية وبلغة قادرة على إيصال مرصوداته إلى المطلع العربي ،لكن الذي لا يخفى هو إن كل محاولات العروي في تفسير حالة العلاقة بين المجتمع و الايديولوجيا تعاني كثيراً من عدم الاتساق والهدوء النفسي وانتفاء المكاشفة وضمور آلياته واولياته المنهجية القادرة على الكشف والفحص الدقيق ما جعله يبدو هارباً في عالم أفكاره ومتهرباً من التفسير ، لكن هذا لا يُغيِب الحقيقة التي لا يكاد يختلف عليها اثنان في إن أهمية المنجز النقد– ثقافي الذي قدمه المفكر العربي (عبد الله العروي) من دراسات استمِّدت ماهيتها وخصوصيتها من عقل الأنوار الماثل في فلسفة بيكون وكوندياك التي انطلق منها وفياً لها،باحثاً عن الحقيقية بوصفها تجليات العقل التي " لا يمكن فصلها عن ظروفها الإنسانية والبشرية..." مختزلا جل مأساة المجتمع العربي على المستوى المعرفي الذي ينتج مأساة السياسة ويتحمل مسؤولياتها باعتبار أن الايديولوجيا السياسية تعتاش على ماتمده بها المعرفة من روافد ثقافية فالمشكلة الأساس في نظر الدعاوى التي قدمها العروي تكمن في تشخيصه لحالات ثلاث نذكرها حسب تصورنا بالتالي:–

أولا: على المستوى الإيديولوجي:" لقد سطا العرب في الماضي على أرسطو.. "[١٦]وصوروه على شاكلتهم ، فجعلوا منه مفكرا يوافق ميولهم وتطلعاتهم ونراهم اليوم يتعاملون مع ماركس بنفس الطريقة والتوظيف رضوخاً لما تمليه عليهم أوضاعهم التاريخية ولا شك إنهم يقرؤونه قراءة غير متسقة ولا مكتملة ولا واعية .

ثانياً: على المستوى التاريخي : أصاب التشوه أشكال العلاقة بين الإنسان العربي والتاريخ فالعرب (والكلام للعروي) ينظرون بفارغ الصبر للمستقبل ، فيتصرفون كما لو كان قد تحقق بالفعل ، يحتقرون الحاضر الذي يعيشون إلى حد أنهم لا يرونه جديراً بالدراسة مع انه سيكون يوما ما ماضيهم وسيضطرون عندئذ إلى فحصه ، أنهم ينفرون من إي شخص يسعى إلى وصف حالهم بدون فكرة مسبقة .

ثالثاً :على المستوى السوسيولوجي : المجتمع العربي" مجتمع مقبل على الانهيار "[١٧] ،المسالة التي لا يعيها المختصون في الاجتماع العربي وقراءته إن الواقع الاجتماعي الناضج ينشئ له انعكاساً معرفيا ناضج وحسب " ولا شيء يعكس حاجتنا الماسة إلى نظام فكري جاهز ، نستدل به ونرتكز عليه .

إذا فـ " العقل العربي" يسطو على منجزات الآخرين المعرفية،و المجتمع العربي" آيل للسقوط ، وثمة نزيف لا يتوقف عند حد يعانيه الإنسان العربي في اطر علاقته بالتاريخ والمستقبل أيضا.. هذا بإيجاز ما قدمه العروي في رؤاه التي :(لا تؤمن بوجود الحقيقة المطلقة في المجتمعات الانسانية، ولا تعنى بها قدر عنايتها بالسلوك الوارد فيها)، فالحق المطلق" أو "لاهوت التاريخ" من المفاهيم التي ينبذها العروي لأنها لاتفسر الأشياء إلا وفق مقاربات ميتافيزيقية يائسة مع المطلق– المحض عند هيغل وكانط... والمتفحص بدقة لكتابات ونقودات العروي ابتدءا بـ (الإيديولوجيا العربية المعاصرة ، العرب والفكر التاريخي، مفهوم الإيديولوجيا ، مفهوم العقل ، مفهوم الدولة و ثقافتنا في منظور التاريخ ..) يستطيع تلمس قدرته العالية على تشخيص ماهية المأزق السوسيولوجي والتاريخي والثقافي للإنسان في مجتمعاتنا (المتهرئة)المعاصرة ،وفق هواجس إشكاليه تبدأ بالتساؤل حول إمكانية تجاوز العقل للتاريخ والقفز على حدوده الزمكانية : " كيف يمكن للفكر العربي أن يستوعب مكتسبات

الليبرالية ؟ و أن يقف بمواجهة سؤال الحداثة، المتمثلة حتى الآن في الفكر الليبرالي للقرن الثامن عشر قبل وبدون أن يعيش مرحلة ليبرالية؟"[١٨].

ولا شك أن مفهوم "الادلوجياء " الذي يعد من أكثر المفاهيم قلقاً وارتباكاً وجد عند العروي شحنة إيهامية وميتافيزيقية ،رغم هذا يعّدُ بمثابة بؤرة سؤاله عن حالة الحداثة ومصائرها لديه ونقطة انطلاق نظرية ذكية جدا لملم شتاتها في دراساته حول الإبعاد الإشكالية لمصطلح ثقافي إشكالي جعله نموذجا لترميم البنية التحتية للحقل الاصطلاحي الذي يجر عدم وضوح عناصره وأدواته المفهومية إلى خطر كبير في رسم خطوط الفكر المستقيم . ما دفعه إلى محاولة إيجاد(قاعدة) لاستعمال هذا المفهوم – غير البريء – (حسب تعبيره) والحامل بين طياته وجنباته الكثير من التناقضات والأوهام الفكرية المسبقة التي يجب الوعي بها وقراءتها بعقل نقد– تاريخي يتيح لنا الوقوف على الحقيقة بثبات والاحتفاظ بموقف راسخ من العالم والواقع الذي تتوسط (تلك المفاهيم) علاقتنا به وتشكل تصوراتنا عنه وبالتالي فإنها المرآة التي نتأمل من خلالها نرجسيتنا ومجتمعيتنا وتقييس فعلنا الثقافي وموقفنا إزاء العالم .و هو في التحليل الأخير إيديولوجيتنا التي تضبط علاقتنا مع أنفسنا والأخر المجتمعي بوصفها فعالية إيهامية للعقل الإنساني الواعي لحركة التاريخ وعيا زائفاً محدداً وموجها أفكاره وسلوكياته بكيفية ملتبسة لا واعية تماماً، تضعنا في مهب الريح وعرضه للسحق التاريخي في أي لحظة يشاء.. بينما شخّص هربرت ماركيوز بعيداً عن العروي موجداً ما يفسر هذا التناقض الذي يصيب الفرد انطلاقا من إن" موافقة الفرد لمحيطه في المجتمع المعاصر تتسرب إلى حيث تتولد المفاهيم في العقل ، تلك المفاهيم التي يدرك بها الإنسان وضعه الراهن بشكل مقلوب وخادع .."[١٩] من هنا فالايديولوجيا إذا تحتوي بوصفها رؤية كونية [٢٠] على مجموعة من المقولات والأحكام حول الكون ، تستعمل في اجتماعات الثقافة لإدراك دور من ادوار لتاريخ وتقود إلى فكر يحكم على كل ظاهرة إنسانية بالرجوع إليه كقصد يتحقق عبر الزمن .ولكي نصل إلى رسم معالمها لا بد لنا من تحليل وتأويل الأثر الفكري والمعرفي لذاك العقل وحالاته ومنتجاته الابستمولوجية .وهذا ما فعله العروي [٢١]مع نماذج متباينة لسوسيولوجين تداولا مفهوم الايديولوجيا وانصاعا لتداولاته كان الأول كان ماركيوز في(الإنسان ذو البعد الواحد)[٢٢] والأخر من الشرق النامي هو نديم البيطار في(الايديولوجيا الانقلابية) [٢٣]بالإضافة إلى قراءته لنفسه في (الايديولوجيا العربية المعاصرة).

في قراءته – للادلوجياء – أختلف العروي كثيرا عن نفسه في مؤلفات أخرى وجدنا انه كان موجزاً على غير عادته وليس ذي رأي أو توجيه تاركاً لتدوينه الغطس بحرية مطلقة في محيط نظريات وأفكار و أراء الآخرين جميعا – ابتدءا من أسئلة فرانسيس بيكون التجريبية : كيف نفكر ؟ ثم توجيهات الفلسفة عند كوندياك و بلورة علم الأفكار عند دي تراسي ثم قراءته أصول الفكرة لدى آخرين بلغة سردية و أكاديمية محضة برغم أن مفهوم الايديولوجيا كان في الأساس محاضرات ألقاها ودونها قبيل كتابه النظري المهم والكبير(الايديولوجيا العربية المعاصرة) والذي ارتكز عليها في طروحاته التالية حول العقل والتاريخ والدولة العربية المعاصرة .

أدلوجياء ماركس : إشكالية المنهج والمفهوم عند العروي

على الرغم من تأكيدات العروي مراراً على أهمية التصور المادي للتاريخ عند ماركس في إعانة الفكر والمجتمع العربي على حد سواء في تجاوز محنة الموت في الزمان والتاريخ لأنه مازال يعتقد أن المجتمع العربي وعقله التاريخي بحاجة إلى أن يتتلمذا على معطيات التحول الاجتماعي التي تحكم خيوط توجيهه ببراعة النظرية"الماركسية التاريخية"[٢٤] و الموضوعية التي ما هي إلا ماركسية تتلون بأوضاع المجتمعات العربية " أكتفي بتسجيل واقع والتقيد به، وهو أن المجتمع العربي مازال محتاج في ظروفه الحالية إلى الماركسية التاريخانية". النظرية التي فكر كثيرا في تأميمها وتبيئتها تاريخيا وثقافيا في المجتمع العربي (لِمَ لا ؟ أؤممها، فهي رغم كل شيء، ليست بيولوجيا؟)[٢٥].. أو

قوله" إن المساهمة الأساسية في هذا المضمار مساهمة ماركس....."[٢٦] إلا انه يبدأ رحلة تناقضه مع فهمه و توظيفه للمفهوم التي يطلعنا عليها عندما يروي لنا أن الصراع العنيف والمتجدد بين الطبقة الوسطى والارستقراطية الذي ميز أوربا الغربية وخاصة ألمانيا وحركة النقد التي تلت موت هيغل وعمت الأوساط الألمانية في الفترة الفاصلة بين ١٨٣٠–١٨٤٨ كل هذه العلاقات المتشعبة تلقي أضواء كاشفة على إن مفهوم الايديولوجيا الذي استعمله ماركس في مؤلفاته الأولى يحمل أثار ذلك التطور الملتوي والمتشعب وفي هذا الشيء الكثير من الجدوى الاستكشافية التي ستمد عرضنا هذا بالقوة لكن المشكلة تأتي لاحقا حينما يعّدُ العروي مفهوم ماركس للايديولوجيا بوصفها :(مجموعة أوهام تعتم العقل وتحجبه عن إدراك الواقع والحقيقة) الوارد في (الايديولوجيا الألمانية)" مفهوما مهزوزا وغير متكامل [٢٧]." والإشكالية في انه ينقضه يرفضه ومن ثم يستمر في اعتماده وتبنيه إلى نهاية الكتاب كمفهوم أساسي ثم يعرض من خلاله أراء لثمانية من فلاسفة وسوسيولوجيين لم يتمكنوا قط رغم كل محاولاتهم الجادة من دحض ونقض أو حتى مجرد الخروج على التصور والموقف الماركسي..والسبب يكمن حسب هذه الدراسة إن ماركس و انجلز هما اللذان أعطيا كلمة الايديولوجيا أهميتها التي تكتسبها اليوم في كل ميادين البحث [٢٨] فالأهمية التي تكمن في توصيف ماركس للاديولوجيا بأنها" تلك الضجة المصمة، التي تعيق المرء عن إدراك أي جزء من أجزاء الواقع التاريخي " تبدأ فعلها مع سؤاله العام : "لماذا يقلب الإيديولوجيون كل الأمور رأسا على عقب..؟ " وتنهي فاعليتها مؤقتاً عند تعريف فريدريك انجلز لها في رسالته إلى ميهرنج ١٨٩٣ التي سأضطر إلى نقل جزء كبير لكنه مهم جدا لتفصيل حالة المفهوم وتناوله المعقد بعد موت ماركس وتبديد الشكوك الكثيرة في فهم حقيقي لمقولة الاديولوجيا في علم الاجتماع الماركسي .

رسالة من انجلز إلى فرانتس مهيرنغ

- عزيزي السيد ميهرنغ

" .. اليوم فقط استطيع أن أشكرك على لطفك وإذا كان عندي بعض الاعتراضات ، فليس ذلك إلا لأنك تنسب إلي من الأفضال أكثر مما ينبغي واستحق ، حتى وان اعتبرنا كل ما يبلغ إليه تفكيري بصورة مستقلة ، ولكن ما اكتشفه ماركس قبلي بزمن طويل ، هو الذي يتجلى بنظر ابعد وافق أوسع . .. إن من حالفه الحظ وعمل أربعين سنة مع رجل مثل ماركس ، لا يتمتع عادة في حياته بذالك التقدير الذي يأمل به . ولكن عندما يموت الرجل العظيم، يحدث بكل سهولة إن يشرعوا في تقدير رفيقه الأقل شأنا منه بأكثر مما يستحق، وهذا ما يحدث لي ألان ن على ما يظهر. بيد إن التاريخ يضع كل شيء في مكانه في أخر المطاف، ولكن حتى ذاك، سأمضي مع السلامة إلى العالم الأخر ولن اعرف شيئاً عن أي شيء.

هناك نقطة لم تبرز لا في كتابات ماركس ولا كتاباتي بروزاً كافيا ونحن في ذالك نتحمل معاً نفس المسؤولية ،وهي إننا اعتنينا أولا باستنتاج التصورات الإيديولوجية كالسياسية والقانونية وغيرهما وما تكيفه من أفعال استنتاجا من الظواهر الاقتصادية التي هي قاعدة لها . وكنا على حق، لكن اعتباراً للمضمون أهملنا الشكل، أي الطريقة التي بها تتكون هذه التصورات.وهو ما مكن خصومنا من فرصة ذهبية سمحوا فيها لأنفسهم بتأويلات خاطئة وتشويهات ."[٢٩]

وهنا نعود إلى تعريف الايديولوجيا في رسالة انجلز هذه :أنها عملية يقوم بها من يسمى بالمفكر ، وان عن إدراك (لكنه إدراك خاطئ) .لان القوه المحركة الحقيقية لنشاطه الفكري تظل مجهولة بالنسبة إليه، وإلا لما كانت العملية عملية إيديولوجية.

"...هنالك تصور سخيف عند الإيديولوجيين ، مفاده إننا لا نقر بالتطور التاريخي المستقل لمختلف الأشكال الإيديولوجية التي تضطلع بدور في التاريخ وننكر إمكانية تأثيرها في التاريخ ..وهذا تصور سطحي غير ديالكتيكي لأننا نعتقد وبجدية بالغة إن الظاهرة الإيديولوجية والتاريخية التي

تنتجها أسباب اقتصادية ، تصبح على الفور بدورها عاملا فاعلا قادر على التأثير في البيئة المحيطة لها وحتى في الأسباب التي أنتجتها ..".

بعد هذا التوصيف لا محالة نحن في حاجة ماسة لتوضيح وتقديم مجموعة من الملاحظات المهمة التي وردت على لسان انجلز في هذه الرسالة موجزاً من خلالها كل ما كتبا معاً عن إشكاليات الايديولوجيا والمعرفة والتي لم يستطيع احداً بعدهما من التخلص منها ومن تأثيراتها وأطيافها ولا حتى الذي جاء بعدها ناقضاً أو ناقماً، ليثبت باستمرار أهمية أن نقرأ بحذر كل إنتاجهما وخاصة الأخير من أعمالهما بل وحتى عندما كانا من جماعة" الهيغليين الشباب" وسنضرب مثلاً التوسير انه قال :ان ماركس بقي متأثراً باللغة الهيغلية حتى بعد إن تجاوز هيغل فكرياً واكتشف أساس علم الاجتماع والتاريخ ، لذا علينا قراءة كل مؤلفات ماركس من جديد، حتى الأخيرة منها ،لفك الحقيقية العلمية الماركسية من خلال قشور التعبير الهيغلي. إن الحد الفاصل بين ماركس وهيغل هو كيف تصور كل منهم البنية الاجتماعية ورغم جمالية التعبير في التحليل الـ التوسيري في تبيان الفوارق بين الاثنين (الفكرة التي تتجسد إلى مجتمع)عند هيغل و(المجتمع الذي ينتج تصورات وانعكاسات ذهنية ليست واقعية على الإطلاق) عند ماركس إلا انه عند ما يفكر في تميز الوعي: بوصفه انعكاس حركة الموضوع في الذهن والخرافة التي تنتجها تأثيرات الذات الجانبية يستنتج من خلالهما حركة الادلوجة التي تبدأ في رأيه عندما يتحول الفرد الملموس إلى ذات تتوهم إنها مستقلة حرة متحكمة في الحركة التاريخية .." وعندما نقارن بين رؤية التوسير هنا نجدها ليست بالبعيدة أبدا عن توصيف ماركس اوانجلز الأتي :(عملية يقوم بها من يسمى بالمفكر ، وان عن إدراك (لكنه إدراك خاطئ) .لان القوه المحركة الحقيقية لنشاطه الفكري تظل مجهولة بالنسبة إليه) إذا فالذات المفكرة عند الاثنين: تظن /تعتقد / تتوهم الحرية والانفلات من قبضة القوه المحركة لنشاطها المعرفي في حركة التاريخ وتحولاته ليكتشفا معاً (في التعريفين) إنهما يدورن في فلك واحد تلفه القوانين الموضوعية التي تسير العالم بكل تفاصيله الصغيرة والكبيرة .(الذات ، المواقف ،الفكر ، التصورات) الذي يهمنا من هذا العرض إن العروي سقط في فخ التوسير التجديدي فترك التحليل الأصل عند ماركس ليختار الصورة الالتوسيرية التي تعاني في الكثير من أبنيتها من عقم التاريخية لتذهب بعيداً تائهة في طريق الذات ومنعرجات التحليل النفسي الحديث .

الحق إن عبد الله العروي وباستثناء محاولته الجادة لتبيئة المفهوم لم يقدم أي جديد سوى شتله مصطلح الادلوجة في الحقل الثقافي العربي وان كان مقلوبا على رأسه على مستوى الشكل متجاهلاً ماهية المفهوم ومضامينه وأبعاده في اقتراحه (غير الموفق أبدا) تعريبها وإقحامها قوالب الصرف العربي بوصفها (ادلوجة)وليس ايديولوجيا ليكون على وزن افعولة / ادلوجة و (تصريفها حسب قواعد العربية الى : ادلوجه ، ادليج ، ادلوجات ،وادلج ادلاجا ودلج تدليجا وادلوجي ادلوجيون ..)[٣٠] ودليلنا في ذلك انه عمل على الالتزام بالتعبير المعرب بين دفتي كتابه متجاهلا كل تنظير له في عنوان كتابه وتسميته النهائية الذي كان (مفهوم الايديولوجيا) وليس (مفهوم الادلوجه أو الادلوجياء) قافزا على محاولته تعريب المصطلح راغباً في التغريب من جديد والى حالة التواضع العلمي الأولى الكامنة في إشارته "... إن الهدف الأساسي من هذا الكتاب هو التوصل إلى قاعدة استعمال مفهوم الادلوجه بكيفية مرضية " ..والغريب في الأمر انه يقحم أثناء محاولاته تحليل وتوصيف تاريخانية الفكر الايديولوجي أسماء ليس لها أية علاقة بمعركة الايديولوجيا في تاريخ العلم والفلسفة لكنه يحاول توظيفها لمجرد تقوية نصه أو مليء فراغ ذاكراً الفيلسوف الألماني فرديدرك نيتشه وموظفاً مقولته حول (العقل كأداة طيعة للوصول إلى أهداف غريزية) والأفكار التي هي عند نيتشه : (قناع يستر وراءه هدفا أعمق واعم من المصلحة الفردية والطبقية هو غل المستضعفين وضحايا الحياة ذلك الغل الذي خلق عالما أعلى ،عالما وهميا بجانب العالم الأسفل الحقيقي الوحيد الذي نعيش فيه)، ومن ثم

سيجموند فرويد مستثمرا لديه تنظيراته السايكولوجيه عن الوهم والرغبة المكبوتة وراء الوعي مستفيدا من توصيف فرويد للأفكار (التي يضعها العروي قسراً في خانت الايديولوجيا و تفاصيلها):بوصفها أوهام تخدعنا بها الرغبة لتصل إلى هدفها وهو تعرية هذه الأوهام لان نتاجات العقل تبريرات خلقها الإنسان المتمدن لمعارضة دفع الرغبة الجارف لأصولنا الحيوانية والأكثر غرابة انه يتبعهم بعالم اجتماع متخصص بالايديولوجيا هو (كارل مانهايم) مكتفيا بصفحتين يتحدث فيهما عن الايديولوجيا السياسية معتبرا إن مانهايم تمكن من تكوين نظريته استنادا إلى نظريات الاجتماعيات الألمانية (فيبر ، جورج زمل ، ديلثاي) هذا الفرض الذي يعاني ضعفاً مزمناً لان مانهايم في نهاية الأمر يميل في اغلب فرضياته لجهة ماركس أكثر من ميله لما يطلق عليه العروي(الاجتماعيات الألمانية)التي هي الأخرى لم تتمكن من الخلاص والفكاك من سحر ماركس الذي احكم قبضته واستحوذ على عصره والعصور التي تلته ..وفي قطاع أخر من تحليلاته (الايديولوجيا) يعتقد العروي إن جورج لوكاش كان له الامتياز في استنباط الإشكاليات الأولي وإعادة تركيب أو تأويل ادلوجياء ماركس إذ عرفها لوكاتش في كتابه (التاريخ والوعي الطبقي)[٣١] "..نسقا من النظريات والمفاهيم التي تسود مجتمع ما في مرحلة من مراحل تطوره ولكن هذا النسق ليس بالإنتاج الطبقي الخالص، انه نسق يسود المجتمع في جملته لصالح طبقة محددة هي الطبقة القابضة على السلطة ". ولهذا كانت مهمة الايديولوجيا – حسب لوكاش – في القرون الوسطى تنحصر في تبرير علاقات هذه الطبقة القابضة .في حين نرى مهمتها في العصر الحديث أن تداري المتناقضات القائمة في علاقات الرأسمالية. ورغم إن العروي لم يتناول هذا التعريف في قراءته للادلوجة مع أهميته ، وبالتالي فان معالجته هذه لا تخلو من تجني وظلم لسوسيولوجيا ماركس المعرفية التي ينعتها العروي بـ(ادلوجياء ماركس) ولا أظن أن مؤلف لوكاتش(التاريخ والوعي الطبقي) رغم أهميته يمكن أن يرقى إلى أقل نصوص ماركس أهمية في شبابه والملاحظة الأخرى إن لوكاتش حاول جمع ما يخص سوسيولوجيا المعرفة في نصوص ماركس الرئيسة (رأس المال ونقد الاقتصاد السياسي) لأنه لم يطلع أصلا على مؤلف ماركس الأساس في علم اجتماع المعرفة (الايديولوجيا الألمانية) الذي لم يقرأه لا لينين ولا تروتسكي ولا بليخانوف ولا لوكاش بل انه لم يرى النور في أوربا إلا بعد عام ١٩٤٧ ولم يترجم إلى العربية إلا في عام ١٩٦٨ عندما قراءه العروي باللغة الفرنسية آنذاك هذه القراءة التي بدت في نظرنا أولية ، سطحية فحسب.. فيما وصف العروي مقولات لوكاتش بالخطيرة جدا وعد موقفه ثوريا –لأنه كشف عن الجانب الفلسفي في نظرية ماركس وتجذرها في منطق هيغل ، بعد خمسين سنة من التركيز على الجانب التاريخي – وكأنه لم يقرأ تنظيرات ماركس الواضحة والدقيقة جدا حول تمثلات وتحولات البنية التحتية في سماء البنية الفوقية والتي نذكر منها فقرة مهمة جداً وردت في مؤلفه الايديولوجيا الألمانية :

" إن الأخلاق والدين والميتافيزيقا وكل ايديولوجيا أخرى ، ومثلها صور الوعي التي تناظرها ،لا تحتفظ بظاهر الاستقلال الذاتي . فليس لها تاريخ ، وليس لها تطور . إن الناس هم الذين بدلو واقعهم الخاص وطريقة تفكيرهم وأفكارهم في الوقت الذي طورا فيه الإنتاج المادي والعلاقات المادية.فليس الوعي هو الذي يعين الحياة وإنما هي الحياة التي تعين الوعي ."[٣٢]

ليعود العروي من جديد إلى ماركس منطلقا من منظوره الأخير حول البنية الفوقية : مستندا إلى تعبير ماركس" ليست الأفكار المسيطرة على حقبة ما إلا ترجمة ذهنية للعلاقات المادية السائدة في تلك الحقبة " وهذا يثير الحيرة لدى قارئه فهو وعدنا بقراءة ماركس بأعماله الناضجة وتجاوز ما تداوله ماركس قلقا ومهزوزا في" الايديولوجيا الالمانية" ليعود إليها عندما يضطر إلى رسم تفاصيل العقل الإيديولوجي وتعريفه على انه العقل "الذي ينظر إلى الأشياء نظرة ادلوجية هو الذي يتخير الأشياء ويؤول الوقائع بكيفية تظهرها دائما مطابقة لما يعتقد انه الحق وبالتالي فهو يتناقض مع العقل الموضوعي الذي يخضع للمحيط الخارجي فيتشبع بقوانينه " [٣٣] أو قوله عن الادلوجه إنها الصورة

الذهنية غير المطابقة للقاعدة المجتمعية المنوط بها " التي جاءت في مؤلفه الأخر (الايديولوجياالعربية المعاصرة) الذي نقرأ فيه " ليست الايديولوجيا الفكرة المجردة أو العقيدة وإنما هي الفكر غير المطابق للواقع "[٣٤] أو أنها تصور الفرد للحاضر والماضي والمستقبل في ذهن الفرد معكوس أو مشتت أو معكر غير واضح " [٣٥]وعندما نمعن النظر في تعريفاته هذه و تلك نقتنع مباشرة إنها مستله بالكامل من توصيف ماركس للعقل الإيديولوجي .. فالتأويل الذي يكيف الوقائع مع الحق أو الفكر غير المطابق للواقع أو التصور المعكوس في ذهن الفرد وقوله في كتابه" الايديولوجيا العربية المعاصرة " اسمي أو أطلق مفهوم (ادلوجة)على أشياء ثلاثة :١ /ما ينعكس في الذهن من أحوال الواقع انعكاساً محرفاً بتأثير لا واع من المفاهيم المستعملة.٢ /نسق فكري يستهدف حجب واقع يصعب وأحيانا يمتنع تحليله ، ٣ /نظرية مستعارة لم تتجسد بعد كلياً في المجتمع الذي استعارها لكنها تتغلغل فيه كل يوم أكثر فأكثر."[٣٦]

إن كل ما أوردناه يجعلنا نجزم قط أن العروي فهم وقرر تحليل الايديولوجيا في النهاية بوصفها حالة خارجه على الوعي ومفككه له على نحو غير حقيقي وبالتالي فأنه يتشبث بجنون بتوصيفات ماركس إن الايديولوجيا بوصفها : فعالية إيهامية للعقل.. هذا التوصيف الذي ظل مرتبطاً بنقودات فرانسيس بيكون ومخلصاً لنقديات الحس وموصلاته العقلية عند كوندياك ووفيا لعلم الافكار الذي شاء له تراسي نقد القناعات العقلية ذات الاصل الوهمي التي يصلنا العقل بها كانعكاسات ذهنية للواقع الخارجي، هذا التوصيف الذي ظل ميالاً لظواهريات العقل وفينومنولوجياته عند هيغل وجراحه الميتافيزيقية التي كشفها ماركس في "الوعي الكاذب " ..ليبدا طريق طويل جدا لم يتوقف سالكوه الى الان بدأ بمحاولات لوكاش والتوسير وغارودي وبيار بورديو وبودريارد وحتى اخر مؤلفات انتوني جدنز حول سوسيولوجيا المعرفة التي لم تفلح في الخروج على الحدود التي وصفها فرانسيس بيكون بوصفها " اصنام العقل " التي بنيت على غير نظام والتي تشكل منذ اليوم الاول لنشاتها اساس أخطائنا ومشاكلنا المعرفية المعاصرة التي تحتاج الى هدم وبناء وبالتالي ان نظامنا المعرفي برمته بحاجة الى بيروستريكا .

نتائج البحث :

لقد كرس العروي عبودية المفهوم والمصطلح وشارك في زيادته قلقاً، بينما كنا نأمل منه تحرير المفهوم من تاريخانيته المغرقة في الشك الفلسفي والموغلة في التعقيد وفك أسره وأغلاله النظرية والدفع به الى المناطق المضيئة من التداول السوسيولوجي، وتفعيل المواطن الايجابية فيه وإعادة تأهيله الى ساحة الأدوات السوسيولوجيا المنهجية القادرة على تفكيك مكنونات المجتمع وأنعكاساته العقلية وتحرير منطويات العقل السوسيولوجية ..

وعليه فأن الذي نفكر جدياً بكشفه وأضاءته في نقدنا هذا هو مجموعة من الملاحظات و الإشكاليات النظرية التي عانت منها قراءة مفكرنا الكبير عبد الله العروي وحاولنا رصدها وتحديدها هنا بمجموعة من الاشكاليات.

- الإشكالية الأولى : التي عانت منها(ادلوجة) العروي تكمن في إن الايديولوجيا كمفهوم ونسق ووظيفة ترتبط كثيرا بمفهوم أخر قريباً جدا منها هو(الوعي) ويقيم الأخير شكلا طردياً للعلاقة بين المفهومين فعملية تمرير إيديولوجيا سالبة يحتاج إلى وعي مضطرب أو مشوه أو غير موجود أصلا إما من الجهة الثانية فأن توظيف ايجابي للإيديولوجي مهماً كان حاله وموضوعه يحتاج إلى وعيً داعم . وهذا ما لم يتناوله العروي إطلاقا في كل قراءته ودراساته حولها .
- الإشكالية الثانية :الايدولوجيا مفهوم مثل كل المفاهيم السوسيولوجية يمكن توظيفه.وربطه بمجموعة من المناطق أو العناصر التكوينية (مثل النسيج الطبقي الذي يرتكز إليه المفهوم ،قطاعات المفهوم

الفوقية والتحتية وكيف يعتمل في ماهية المفهوم الداخلي ...) والتي تختلف في قوتها وضعفها في كل مرحلة من مراحل استعمال المفهوم وتوظيفاته،الأمر الذي أغفله العروي تماماً في دراسته للمفهوم وتبنى المفهوم كوحدة اصطلاحية غير قابلة للتفكيك .

- الإشكالية الثالثة :اظهر العروي في خلاصة مؤلفاته الثلاثة إن (الادلوجة)مفهوم مشكل ،غير بريء ،زائف ينبغي استعماله بحذر ،بل يتحتم الاستغناء عنه في أكثر الحالات ، الذي افقدنا في النهاية أداة (اصطلاحية) فعالة ومهمة جدا في علم اجتماع المعرفة .
- الإشكالية الرابعة : إن قراءة العروي للادلوجة أكدت على مجموعة من الأسماء المهمة جدا لكنها لم تقدم أي شيء يذكر او يخدم المفهوم ونذكر منهم مثلا(فريدرك نيتشه ، سيغموند فرويد وحتى روجيه غارودي) وتجاهل في نفس الوقت مجموعة من التحليلات الأساسية والتي لا غنى عنها في موضوعة الادلوجة مثل (انطونيو غرامشي ومفاهيمه الأساسية جدا – الكتلة التاريخية – الفعالية الجماعية للايديولوجيا).
- الإشكالية الخامسة : ناقش العروي وحاول جاهداً التأثير على منظورنا وتصوراتنا عن الايديولوجيا وقدمها لنا بوصفات معرفية ماركسية " وعي زائف ومقلوب للعالم " أو "وهم محض " أو كما ورد وصفها في بحثنا هذا – فعالية إيهامية للعقل – في تلمسه للواقع ولاشك ان جميع هذه التعبيرات هي "ماركسية" شكلا ومضموناً ولم ينقل لنا الايديولوجيا بوصفها (مثلاً)"الوسط الضروري الذي بدونه لا يمكن للبشر إن يتحاوروا ويفعلوا بالتاريخ " التي قدمها لنا ميشيل فاديه ٣٧أو بوصفها أولى محاولات الذهن البشري تنظيم تصوراته عن العالم اوشكلاً ذهنياً تفرزه جدلية الفعاليات السايكولوجية الرئيسة للفهم والدافعة للتكيف الإنساني في هذا العالم الذي نعيشه والذي مازال متعالياً على قدراتنا المحدودة على الفهم.

المصادر

(١).البيطار ، نديم : الايديولوجيا الانقلابية ، (دار بيسان للنشر والتوزيع – بيروت) ،ط/٣، ١٩٨٦ .
(٢).برول ، ليفي : العقلية البدائية ، ترجمة:محمد القصاصين ،(مكتبة مصر – القاهرة) ، لاتوجد طبعة اوتاريخ .
(٣).العروي ،عبد الله : الأيديولوجيا العربية المعاصرة، (المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء)، ط/١,١٩٩٥.
(٤). العروي ، عبد الله : العرب والفكر التاريخي ،(دار الحقيقة –بيروت)ط/٢،١٩٧٣ .
(٥).العروي ، عبد الله : مفهوم الايديولوجيا ،(المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء) ،ط/٧، ٢٠٠٣.
(٦). الجوهري ، محمد :دراسة علم الاجتماع (دار المعارف– القاهرة) ط/٢ ، ١٩٧٥ .
(٧). جيروفيتش،جورج :علم الاجتماع المعرفي،ترجمة: محمود عودة (دار المعارف – القاهرة)،١٩٧٣ .
(٨). هيغل ، فريدرك : فينومنولوجيا الذهن ،(مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت) ط/٤، ٢٠٠٨
(٩). لوكاش ، جورج: التاريخ والوعي الطبقي،ترجمة: الدكتور حنا الشاعر،(دار الاندلس – بيروت)،ط/١ ،١٩٧٩.
(١٠). لبيب ، الطاهر :سوسيولوجيا الثقافة ،(دار قرطبة للطباعو والنشر– الدار البيضاء) ١٩٨٦ .
(١١). ف، بوريكو ،بودون:المعجم النقدي لعلم الاجتماع ، ترجمة:سليم حداد،(المؤسسة الجامعية – بيروت) ،١٩٨٦.
(١٢). فاديه،ميشيل: الايديولوجية– وثائق من الاصول الفلسفية ، امينة رشيد، (دار التنوير– بيروت)، ط/١ ،٢٠٠٦
(١٣). مانهايم،كارل:الايديولوجية والطوبائية–ترجمة: عبد الجليل الطاهر ،(مطبعة الارشاد – بغداد)ط/١ ،١٩٦٨
(١٤). ماركيوز،هربرت : الانسان ذو البعد الواحد،ترجمة :جورج طرابيشي ،(دار الاداب – بيروت)،ط/١ ، ١٩٦٩.
(١٥). ماركس ، انجلز : الاعمال الكاملة ، ترجمة: الياس شاهين ،(دار التقدم – موسكو).
(١٦). ميتشيل،البروفسور دينكن:معجم علم الاجتماع ،ترجمة:احسان محمد الحسن،(دار الطليعة– بيروت)، ط/١، ١٩٨١.
(١٧). كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ،بيروت ، (لا توجد طبعة ولا تاريخ) ص٣٣١

الموسوعات

(١٨). الموسوعة الفلسفية المختصرة،نقلها عن الانكليزية: فؤاد كامل وآخرون(مكتبة الانجلو مصرية– القاهرة)ط/١،١٩٦٣

Abstract

IDEOLOGY..it is illusive activity for the reason In criticism – ideology from the knowledge sociology view for al-ARAWY.

INTRODUCTION

The ideology is considered one of the most circulating concepts and it is controversial done by DESTUTT DE TRACY . the mental state science and it like science which gives the mental base for criticizing the traditions – but DOR KAYIM the spontaneous culture for the society , he considered it the (all conscious), al though it is of the French origin but to day it is a (word or concept) and it is intruded on the living languages ideas , mental thought , besides the analytical study for the ideas and the ideologists according to MARX who thinks the mind rules the world and he is in his satisfaction like a drowning person who thinks he can save through just by dispelling the load thought .

The ideologists they are Detracy group who are with the philosopher thought which it gave maximum priority to the knowledge confusion in its relation with the authority on the reality and invested it in the human knowledge they consider the philosophical trial mind should rule the world and its right thoughts taken from the mind from the sencal attempt which makes events and so the way of man for more of progress should pass through the liberation for his mind of metaphysics and theology.

as in the social , human studies – the ideology theoretical thought during the individuals think through historical phase in their issues- so those individuals produce est of thoughts and imaginations about the state the live at by realizing tangible and external description , they think their knowledge reflects its reality and this knowledge science in it . this made it of the main concept in the sociology of knowledge which makes sociology and after one century at the spinal column through which sociology is made and considered it from the main ideas the subjective science is unable to prove its reality but the strengthen of these ideas appear through its emotional tunes and its tactics which motivate the masses and it which goes with the social events then it has leey considered of anonymous activities from the first moment for the attempts to study it philosophical in criticizing the mind as for BECON the senual philosophy by CONDALLAC the absolute knowledge by HEGAL and it is considered fate bv MARX..

هوامش البحث:

(١).دستوت دي تراسي- DESTUTT DE TRACY –(١٧٥٤–١٨٣٦) فيلسوف فرنسي ،أحد اقطاب فلسفة التنوير العقلية ،واضع علم الافكار او مايسمى في بحثنا هذا :(IDEOLOGY). كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ،بيروت ، (لا توجد طبعة ولا تاريخ)، ص٣٣١.
انظر ايضاً في العروي،عبد الله: مفهوم الايديولوجيا،(المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء)،ط/٧،٢٠٠٣،ص٩.

(٢).الايديولوجيين جماعة من الفلاسفة والعلماء ، ساهموا مساهمة عملية في الثورة الفرنسية وما اعقبها من تطورات سياسية وهم فضلاً عن دي تراسي جورج كابنيس (١٧٥٧– ١٨٠٨) والمؤرخ قسطنطين فولني (١٧٥٧– ١٨٢٠) فضلاً عن جوزيف سيبس (١٧٤٨–١٨٣٦) وآخرين مثل عالم الفلك لابلاس والكيميائي لافوازييه...

(٣).حيمر ، عبد السلام :في سوسيولوجيا الثقافة والمقفين ،(الشبكة العربية للابحاث – بيروت)ط/١، ٢٠٠٩،ص٣٨.

(٤).المصدر نفسه ، ص٤١.

(٥).ميتشيل ،البروفسور دينكن : معجم علم الاجتماع ،ترجمة:احسان محمد الحسن ، (دار الطليعة – بيروت)، ط/١ ، ١٩٨١،ص١٢١.

(٦).بيكون ، فرانسيس: (١٥٦١-١٦٢٦) ولد في لندن ، تلقى تعليمه في كامبرج ، درس القانون وانتظم في سلك المحاماة سنة ١٥٨٢ ،حاول اصلاح العلوم او احياؤها على الطريقة الاستقرائية دون الطريقة القياسية ثم قام بتصنيف العلوم في كتابه (كرامة العلوم وتنميتها) وكتاب اخر هو (ترقية العلوم)، اتهم كوبرينكوس بالفشل والدجل ولم يدرك اهمية قوانين كبلر وبحوث جاليلو ، فهو لم يشتغل في العلم ، اعتقد بالسحر الطبيعي والكيمياء القديمة وبالتنجيم ، دعى الى سلطان الانسان على الطبيعة ، كتب في السياسة [اتلنتس الجديد] و[مدينة الشمس] في ١٦٢٣ كتب في القانون ١٥٩٩(احكام القانون) صنف التاريخ الى (تاريخ الانسان) وتاريخ الطبيعة في كتابه (مقدمة لتفسير الطبيعة) وصنف الفلسفة الى الفلسفة الطبيعية وماوراءها وفلسفة الانسان وصنف موضوعاتها الى (الطبيعة والانسان والله) نظر الى العقل بوصفه اداة تجريد وتصنيف ومساواة ومماثلة ...اعتبر ان العقل يجري على سليقته انقياداً لاوهام طبيعية فيه في مؤلفه الشهير " اصنام العقل " التي قسمها الى اوهام اربعة:(اوهام القبيلة، اوهام الكهف، اوهام المسرح ،اوهام السوق). انظر :كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٤٤.

(٧).كوندياك :ايتين بونو دي ،كوندياك (١٧١٥– ١٧٨٠) ولد في فرنسا تاثر بالموسوعيين وخاصة ديدرو بشكل كبير واصبح صديق لروسو فترة طويلة من الزمن ، بدأ تلميذاً لجون لوك كتب " مقالة في مصدر المعارف البشرية " وكان حول لوك ، اشتهر كثيرا في كتابه " رسالة في الاحساسات " في ١٧٥٤ قدم من خلاله نظرية مهمة جدا حول العقل تجاوز فيه افكار جون لوك وواثر كثيرا في جيمس ميل وهربرت سبنسر قال فيه ا ناو ذهب فيه الى :" ليست جميع أفكارنا وحدها مستمدة من الاحساس ، بل ان جميع قوى العقل ليست إلا تحولات تنتاب إحساسات الحواس ، فهي احساسات متحورة ; فالذاكرة على سبيل المثال – ليست سوى اثر لاحق لإحساس سابق والانتباه هو انشغال الوعي باحساس واحد بحيث يقصي جميع الاحساسات الاخرى.انظر :
الموسوعة الفلسفية المختصرة ، نقلها عن الانكليزية: فؤاد كامل وآخرون ،(مكتبة الانجلوا المصرية– القاهرة)ط/١، ١٩٦٣ ،ص٢٦٨.

(٨). ف، بوريكو ،بودون : المعجم النقدي لعلم الاجتماع ، ترجمة: سليم حداد ، (المؤسسة الجامعية للدراسات– بيروت) ،١٩٨٦،ص٨٤.

(٩). المصدر نفسه،ص٨٤.

(١٠).هيغل ، فريدرك : فينومنولوجيا الذهن ،(مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت) ط/٤، ٢٠٠٨.

(١١).الجوهري ، محمد :دراسة علم الاجتماع (دار المعارف– القاهرة) ط/٢ ، ١٩٧٥ ، ص٤١٩.

(١٢).برول ، ليفي : العقلية البدائية ، ترجمة: محمد القصاصين ، حسن الساعاتي ،(مكتبة مصر – القاهرة) ، لاتوجد طبعة اوتاريخ .

(١٣).الجوهري:دراسة علم الاجتماع ، ص ١٩.

(١٤).جيروفيتش،جورج : علم الاجتماع المعرفي،ترجمة :محمود عودة واخرون (دار المعارف – القاهرة)،ط /لا توجد ،١٩٧٣ ص٤٢٩.

(١٥).مانهايم،كارل :الايديولوجية والطوبائية مقدمة في علم اجتماع المعرفة،ترجمة: عبد الجليل الطاهر (مطبعة الارشاد – بغداد)ط/١ ،١٩٦٨.

(١٦).العروي ،عبد الله : الأيديولوجيا العربية المعاصرة ،(المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء)، ط/١ ، ١٩٩٥ ، ص ١٨٥.

(١٧).العروي ، المصدر نفسه ، ص ١٨٥.

(١٨).العروي ، المصدر نفسه ،ص ١٨٥ .

(١٩).ماركيوز ، هربرت : الانسان ذو البعد الواحد،ترجمة:جورج طرابيشي ،(دار الاداب – بيروت)،ط/١ ، ١٩٦٩.

(٢٠).بايشلر ،جان : ماهي الايديولوجيا ، انظر في مفهوم الايديولوجيا ، ص ١٣٤ المراجع الرئيسية .

(٢١).العروي ، عبد الله : مفهوم الايديولوجيا ،(المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء) ،ط/٧، ٢٠٠٣.

(٢٢).ماركيوز ، هربرت ، الانسان ذو البعد الواحد .

(٢٣).البيطار ، نديم : الايديولوجيا الانقلابية ، (دار الوحدة – دمشق) ،ط/٣، ١٩٨٦ .

(٢٤).عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، ص ٢٢.

(٢٥).عبد الله العروي: في حوار معه أجـراه: عبد اللّـه سـاعـف في مجلة الكترونية ،موقع أمل ، عدد ٢٠، سنة [٢٠٠٠] .
(٢٦).العروي ، عبد الله: مفهوم الايديولوجيا ، ص٧٩.
(٢٧).المصدر نفسه ، ص٣٠.
(٢٨).المصدر نفسه ،ص٢٩ .
(٢٩).ماركس ، انجلز : الاعمال الكاملة ، ترجمة :الياس شاهين ،(دار التقدم – موسكو) ، ص١٦٨ .
(٣٠).العروي : مفهوم الايديولوجيا ،ص٩.
(٣١).لوكاش ، جورج : التاريخ والوعي الطبقي ،ترجمة الدكتور حنا الشـاعر ،(دار الانـدلس – بيـروت)، ط/١ ، ١٩٧٩.
(٣٢).لبيب ، الطاهر : سوسيولوجيا الثقافة ،(دار قرطبة للطباعة والنشر– الدار البيضاء) ١٩٨٦ ،ص٣٥.
(٣٣).العروي: مفهوم الايديولوجيا، ص١٠ .
(٣٤).العروي:الايدولوجيا العربية المعاصرة ،ص ١٧.
(٣٥).العروي: العرب والفكر التاريخي ،(دار الحقيقية –بيروت)ط/٢،١٩٧٣ ،ص٧١.
(٣٦).العروي : الأيديولوجيا العربية المعاصرة ص ٢٩.
(٣٧).فادية، ميشيل : الايديولوجية – وثائق من الاصول الفلسفية ، ترجمة: امينة رشيد، (دار التنـوير – بيـروت)، ط/١ ،٢٠٠٦.